الأوبئة والتّاريخ؛ المرض والقوّة والإمبرياليّة

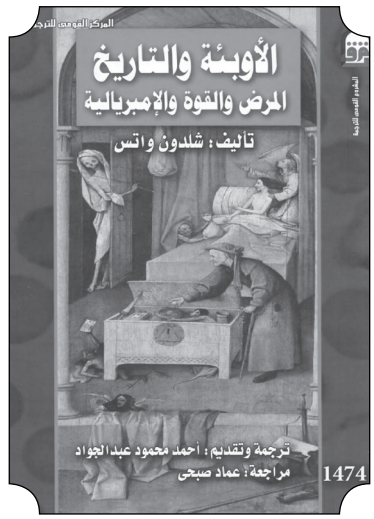

الكاتب: شلدون واتس [1]

ترجمة وتقديم: أحمد محمود عبد الجواد

دار النّشر: المركز القوميّ للتّرجمة، القاهرة، 2010م

عدد الصفحات: 646

مراجعة: آمنة فرحات *

يتحدّث الكتاب عن علاقة الإمبرياليّة، وانتشار الأمراض الوبائيّة في مناطق جديدة لم تكن موجودة فيها من قبل، وكيف استخدمت الإمبرياليّة مفهوم مقاومة تلك الأمراض الوبائيّة بوصفها أداةً من ضمن أدوات الإمبرياليّة العديدة، الّتي مكّنت من اختراق الغرب لدول أفريقيا، وآسيا، والأمريكيّتين.

1- محاضر أوّل سابق في التّاريخ بجامعة إيلورين في نيجيريا ، وأستاذ مشارك زائر للتّاريخ في الجامعة الأمريكيّة في القاهرة. (مترجم من: is a former senior lecturer in history at the University of Ilorin, Nigeria and visiting associate professor of history at the American University in Cairo.) من موقع: https://yalebooks.yale.edu/book/9780300080872/epidemics-and-history.

* طالبة فلسفة في جامعة المعارف، لبنان.

الأفكار الأساسية للكتاب

يُسلّط الكتاب الضّوء على نقطتين مُهمّتين، وهما:

أوّلًا: ردود الأفعال في كلّ من المجتمعات الأوروبيّة، والمجتمعات الشرقيّة القديمة، مثل: الهند والصّين ومصر في التّعامل مع تلك الأوبئة، ونمط التّحكّم بها، وطُرُق مقاومتها، وكيف اختلفت استجابة كلّ من هاتين المجموعتين من المجتمعات تجاه الأوبئة نفسها الّتي حصدت أرواح الملايين من البشر.

ثانيًا: العلاقة بين ظاهرة الاستعمار والإمبرياليّة وأدواتها الاقتصاديّة والقمعيّة وانتشار الأوبئة. فقد قامت الإمبرياليّة في صراعها الدّوليّ للسّيطرة على ثروات أفريقيا، وآسيا، والأمريكيّتين بنقل أمراض جديدة انتشرت في صورة أوبئة إلى شعوب القارات تلك سواء مباشرة عن طريق الغزو العسكريّ، أو تجارة العبيد، أم غير مباشرة عن طريق ما يدّعيه الأوروبيّون «بالتنمية»؛ أي تنمية تلك الشعوب، والّتي كانت في الحقيقة غطاء من أجل تبرير تفكيك التّركيب القبليّ، ونظام الأسرة، ونمط العادات والتّقاليد، والّتي كانت تُشكّل خطّ دفاع قويّ ضدّ انتشار الأوبئة والتحكّم فيها بين تلك الشعوب.

فصول الكتاب

تناولت فصول الكتاب الموضوعات الآتية:

1 - الفصل الأوّل: الاستجابة البشريّة للطّاعون في أوروبا الغربيّة والشرق الأوسط 1347م - 1844م.

2 - الفصل الثّاني: المعاني السّوداء الخفيّة، الجذام والمجذومون في الغرب في العصور الوسطى، وفي المناطق الاستوائيّة تحت أوروبا الإمبراطوريّة.

3 - الفصل الثّالث: الجدري في العالم الجديد والقديم: من المجزرة إلى الاستئصال 1518م - 1977م.

4 - الفصل الرّابع: الطّاعون السّرّيّ: الزّهري في غرب أوروبا وشرق آسيا 1492م - 1965م

5 - الفصل الخامس: الكوليرا والتّمدّن: بريطانيا العظمى والهند 1817م - 1920م.

6 - الفصل السّادس: الحمّى الصّفراء والملاريا والتنمية غرب أفريقيا والعالم الجديد 1647م - 1928م.

تعريف بفصول الكتاب

يعرض الفصل الأوّل من الكتاب رحلة وباء الطّاعون بين البلدان الغربيّة والشرقيّة؛ تلك الرّحلة الّتي لم يكتفِ الكاتب بعرض أحداثها العامّة؛ بل عرض لأدقّ التّفاصيل، وتناول مختلف الأبعاد فيها. لقد استطاع الكاتب أن يأخذ القارئ إلى رحلة عبر الزّمن؛ ليعايش الأحداث الّتي حصلت في المناطق، والّتي أُصِيبت بوباء الطّاعون، حيث قام برسم الواقع السّياسيّ، والاجتماعيّ، والاقتصاديّ، والدّينيّ. ومِنْ ثَمَّ عرض الأسباب البيولوجيّة - غير المنفكّة عن الواقع السّياسيّ، والاجتماعيّ، والصحيّ - الّتي أدّت إلى نشوء ذاك المرض في الحيوانات وانتقاله إلى البشر، وكيف قام النّاس في مختلف المجتمعات بتعليل سبب ظهور الطاعون بمختلف الأسباب. فمنهم من عَدَّ ذاك الوباء تجلٍّ للغضب الإلهيّ، ومنهم من نسب ظهوره إلى الأساطير، ومنهم من علّل ظهوره بالحركة الفلكيّة...

إنّ الاختلاف بتعليل سبب ظهور ذلك المرض، أدّى إلى أن يتمّ التّعامل معه في كلّ منطقة بطريقة مختلفة. ولكن بالإمكان القول: إنّ الخطوات العامّة الّتي تمّ اعتمادها لمواجهته، هي خطوات نراها مُتجلّية حتّى في زمننا الحاضر (الّذي نواجه فيه وباء كورونا):

- دفن موتى الطّاعون من قِبَل الجهة الطبّيّة المختصّة.
- التّخلُّص من ملابس المُصاب.
- الحجر الصّحّيّ للمُصابين والمُخالطين.
- حصر التّنقُّل بين القرى والمدن.
- إغلاق أماكن التّجمّع العامّة.
- ارتداء الملابس الواقية من قِبَل الأطبّاء والعاملين في ذلك المجال.
- تطهير السّلع.
- حرق البضائع المُلوّثة.

لقد قام الكاتب بسرد العديد من الأحداث التّاريخيّة الّتي وقعت في مختلف البلدان الّتي واجهت وباء الطّاعون، وبيّن التغيّرات الاجتماعيّة (مثال: حصول المجاعات في بعض المناطق؛ بسبب النّزوح إليها هربًا من الوباء، وعدم توفّر فرص العمل)، والتّفاعلات الأخلاقيّة والدّينيّة معه (مثال: في إحدى البلدان،

قامت الجهات المعنيّة بقتل الأفراد الّذين تظهر عليهم أعراض الطّاعون).

بإمكاننا القول: إنّ الفصل الأوّل من الكتاب يختصر الكتاب كلّه، في عرضه لِمَا حدث في مختلف أنحاء العالم عند انتشار وباء من الأوبئة.

مراعيًا التّسلسل الزّمنيّ، بدأ الكاتب بدراسة الطّاعون في أوروبا الغربيّة، وفي الإمبراطوريّة المملوكيّة وقاعدتها القاهرة، حيث أُصيبت كلا المنطقتين بالوباء في العام 1347م. اختفى المرض في أوروبا في تسعينيّات القرن السّابع عشر/ عشرينيّات القرن الثامن عشر، ولكنّه ظلّ في الشّرق الأوسط حتى أربعينيّات القرن التّاسع عشر. إنّ الآثار الّتي تركها ذلك الوباء في حياة النّاس، جعله الآفة الجوهريّة الّتي تقارن بها باقي الأزمات فيما بعد.

ينتقل الكاتب بعد الطّاعون إلى مرض الجذام الّذي بالإمكان عنونته بالجملة الّتي وصف بها في أغلب السّاحات (عقاب من الله). تلك الرّسالة الّتي بعث بها التاريخ الّذي عرض لنا كيفيّة تعامل مختلف البلدان مع الجذام على مرّ الأزمنة؛ الجذام الّذي رأى العديد بأنّه نشأ في الهند، وكان سببه نوعًا معيّنًا من البكتيريا، رأى بعض النّاس أنّه عقاب من الله، فترتّب على تلك الرّؤية إرسال المُبشّرين، وأطبّاء الإرساليّات، والمُتطوّعين من ذوي الخلفيّة الدّينيّة من البلاد الأوروبية، للتّعامل مع المجذومين.

قام الكاتب بعرض الأحداث التّاريخيّة، والاجتماعيّة، والسّياسيّة الّتي أحاطت بمرض الجذام، والّتي كان لها دور في انتقاله، وعلاجه. ومِنْ ثَمَّ، بيّن التّغيّرات الاجتماعيّة والأخلاقيّة، ودور الدّين في التّعامل المُتشدّد مع المصابين به.

يدور البحث في الفصل الثّالث حول الجدري في العالَمَيْن: الجديد، والقديم؛ حيث يعترف معظم علماء الأوبئة والمؤرّخين أنّه نظرًا إلى غياب فيروس الجدري عن العالم الجديد، لم يكن لدى سُكّانه قبل كولومبوس فرصة لبناء مناعة ضدّ المرض. وعلى أيّ حال، إنّ أيّ رواية تنحو إلى ذلك، من المحتمل أن تكون محلّ نزاع بحسب رأي الكاتب، حيث إنّ قبول فكرة أنّ 80% إلى 90 % من السُّكّان المحلّيّين في أيّ أرض بكر (من دون مناعة)، يُمكن أن يلاقوا حتفهم عند بداية ظهور الجدري، جعله يتساءل: لماذا فشل النّاجون في استعادة أعدادهم؟ إذ لم يحدث في أيّ قارّة أخرى في الأزمنة التّاريخيّة أنْ أدّى اقتران مرض «الموقف من المرض» وظاهرته إلى انهيار كامل للسُّكّان المحلّيّين. إضافة إلى ذلك، من

يطّلع على التّاريخ يرى أنّ الغُزاة (الإسبان والبرتغاليّين) أرغموا عمّال المناجم الأمريكيّين الأصليّين على العمل في ظروف بيئيّة أدّت إلى موتهم بالجملة من الجدري وأسباب قاتلة أُخرى!

بالتّحوّل إلى أوروبا بعد كولومبوس، وعبور الأطلنطي وإعادة عبوره في العقد التّاسع من القرن الخامس عشر، سنواجه بديناميكيّة غير ملحوظة لقوّة غير بشريّة. ففي وقت ما من منتصف القرن السّابع عشر إلى نهايته، سيغيّر الجدري نفسه من مرض معتدل للأطفال إلى مرض يُصاب به معظم الأوروبيّين. وقد ادّعى أحد المُتخصّصين أنّ «الجدري» مثّل في بداية القرن الثامن عشر أكبر مانع لنموّ السّكّان أكثر ممّا فعله الطّاعون.

لحسن حظّ أوروبا، كانت تلك المرحلة مؤقّتة فقط. عند نقطة معيّنة، في القرن الثامن عشر، حدثت ثورة ديمغرافيّة واسعة هبطت فيها الوفيات كثيرًا عن معدّل المواليد. ارتبط بتلك التّغيّرات الثّوريّة وجود حملات لإحداث مناعة ضدّ الجدري، من خلال التّلقيح والتّشريط والتّطعيم. ارتبطت بتلك الحملة، في القرن التّاسع عشر، وبفعل المرض نفسه، زيادة ضخمة في الفائض الّذي وجده الأوروبيّون في المجال الحيويّ على مدى المساحة الواسعة لأمريكا الّتي كانت كلّها فارغة من أسلاف السُّكّان الأصليّين ما عدا أجزاء صغيرة.

أمّا في الفصل الرّابع، الّذي حمل عنوان: الطّاعون السّرّيّ: الزّهري في غرب أوروبا، وشرق آسيا 1492م - 1965م. فقد تناول مرض الزّهري التّناسليّ في أوروبا، وفي أمريكا بعد العام 1493م، وانتهى الفصل بمناقشة الطُّرق الّتي واجهت فيها حضارة الصِّين ذاك المرض. نرى الكاتب في هذا الفصل يطرح أثر البيئة المُحافظة، والحسابات الاجتماعيّة في عرقلة سعي السّاسة، والجهات الطّبّيّة في تحديد أسباب ذاك المرض، وكيفيّة علاجه، وطُرُق الحدّ من انتشاره.

ينتقل الكاتب في الفصل الخامس إلى وباء الكوليرا الّذي فضح الإمبرياليّة البريطانيّة في التّعاطي مع الشّعوب المُستضعفة.

ذاك المرض الّذي انتشر بشكلٍ واسع في الهند، وكان سببًا لموت الكثيرين، يُعتقد أنّ عدم النّظافة، وعدم تنقية مياه الشّرب هو السّبب الرئيس لنشوئه، «يمكن افتراض أنّه حيث تكون الكوليرا في أسوأ حالاتها، تكون العادات الصّحّيّة والقدرات البدنيّة للنّاس في أدناها... ويمكن افتراض أنّ الكوليرا هي اختبار لصحّة منطقة ما وثروتها». في مقابل ذلك التّحدّي، نرى الرّأسماليّين في لندن يهرولون

للاستثمار في مختلف القطاعات في الهند ما عدا قطاع الصّحّة. لقد سبّبت الكوليرا خلال سنوات الحكم البريطانيّ في الأعوام 1786م - 1947م وفاة أكثر من 28 مليون فردًا! لكن قبل وصول البريطانيّين، ما كان من المُحتمل أن توجّه الكوليرا مثل ذلك التّهديد الكبير لشبه القارّة ككلّ. لذا، يُمكن النّظر إلى الكوليرا بِعَدّها مرض الاحتلال الجوهريّ.

أمّا في الفصل السّادس الّذي دار حول الحمّى الصّفراء والملاريا، فقد أشار الكاتب إلى أنّ التنمية (الّتي شملت الهجرة الإلزاميّة لملايين العمّال من الشرق إلى الغرب) هي القوّة المُحرّكة الأساسيّة في تطوّر ذينك المرضين؛ اللّذَيْن وصلا إلى الأمريكيّتين بحسب قول واتس، من خلال سفن الأفارقة المُسْتعبدين. حدّد الكاتب في هذا الفصل التغيّرات في المواقف تجاه الحمّى الصفراء والملاريا، وبيّن كيف عرف الأفعال الطبّيّة والمُجتمعيّة. ثمّ عرض آراء هوفمان لحقيقة المرض كما تبدو في مؤتمر القاهرة، وبعدئذٍ تعرّض للنّقاط السّاخنة للحمّى الصّفراء والملاريا بدءًا من غرب أفريقيا، فالأمريكيّتين لفحص الموقف في الكاريبي، وفي الولايات المتّحدة، والبرازيل، وكوبا. ومِنْ ثَمَّ، هافانا الّتي تحتلّها الولايات المتّحدة، فغرب أفريقيا خلال عصر التّجارة المشروعة في المواد الأوّليّة الّتي نمت ظاهريًّا بغير العبيد.

من الأمور اللّافتة الّتي تمّ طرحها في هذا الفصل، هو قول بعضهم أنّ الأفارقة السُّود لديهم مناعة طبيعيّة ضدّ الحمّى الصّفراء. ذلك الفهم الخبيث تمّ تبنّيه لإظهار أنّ إله المسيحيّة خلقهم بصورة خاصّة؛ ليخدموا بوصفهم عبيدًا في شمال أمريكا، ووسطها، وجنوبها!

الخاتمة

يختتم الكتاب بفصل: «ماذا بعد؟ ... إلى علم أوبئة مُتغيّر». يمكن إجمال ما ورد في هذا الفصل بالآتي: لقد «شهد نصف القرن الأخير البزوغ المنتصر للطّبّ بوصفه نسقًا علميًّا كاملًا للتّأثير المؤكّد في الشّفاء من الأمراض الّتي تُهدّد الحياة. ولكن شهد كذلك ظهور اتّساع الهوّة في توفير (وعدم توفير) الخدمات الصّحّيّة المؤثّرة لحفنة من المحظوظين، وعدد كبير من غير المحظوظين. عزا المدير العام لمنظّمة الصّحّة العالميّة كارثة الصّحّة الّتي تحدق بمعظم سُكّان العالم إلى الفقر الشديد. إلى هذا، يمكن إضافة أربع مصائب أخرى: الزّيادة السّكّانيّة، والنّزعة

الاستهلاكيّة/التنمية، والقوميّة، والجهل». تلك المصائب الّتي تعود في أغلبها إلى أسباب سياسيّة إمبرياليّة، كان للاستعمار دور أساس في تحقيقها.

لقد تعرّضت مُجمل فصول الكتاب لحركة الأمراض الوبائيّة في خطّ التّاريخ، ووصّفت الأوضاع السّياسيّة، والاجتماعيّة، والاقتصاديّة، والثّقافيّة، والدّينيّة، وفي بعض الأحيان الديمغرافيّة المحيطة بالوباء في كل بلدٍ، أو منطقة عايشت الوباء، أو استطاعت حماية نفسها منه. إنّ السّياسة المُتّبعة من قِبَل السّلطة الحاكمة، في البلد الموبوء، مع الدّاخل والخارج (القوى الاستعماريّة)، والأيديولوجيّة المُهيمنة فيها، كان لهما الأثر الأكبر في تحديد كيفيّة التّعامل مع الوباء المنتشر في مختلف الأمكنة والأزمنة.